

تراث الإنسانية

NYROUF

سقط الزند

لأبي العلاء المعري



أحمد إبراهيم الشريف

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩١



الهيئة
القومية
لحفظ
التراث



مهرجان القراءة للجميع ٩٤

(مكتبة الأسرة)

تراث الإنسانية

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلي

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

الاتحاد الطباعي والفني

محمود الهندي

مراد نسيم

أحمد صليحة

الخريف العام

د . سمير سرحان

سقط الزند

لابي العلاء المعري

أحمد إبراهيم الشريف

أولا - الشاعر :

في شيخوخة الدولة العباسية حين أخذت العلة تدب فيها ، والانحلال يتطرق إليها من أطرافها في شكل انفصال دويلات من الأطراف ، ويتغلغل في باطنها في شكل ثورة هنا وانتفاض هناك ، ويشعل في سائرها في سقوط حبة الخليفة في أعين الناس حتى قال فيه المتنبي وهو يغاطل حبيب الدولة :
سكنا به خراباً لم يبق فيه سدا

فوا عجيباً من رائل أنت سيفه

أما يتوفى شيفرتي ما تقلد ...

وفي الوقت الذي بلغت فيه الثقافة العربية الإسلامية أعلى ذراها بعد أن اتصلت بعالم اليونان وفلسفاتهم ونقلت عن الهند وفارس وغيرها ، ورجعت إلى مصادرها الذاتية ، فأخذت تشيع العلوم مكتوبة ومتداولة على الألسنة بين الناس ، فظهرت علوم الدين واللغة والتفسير والحديث

واللغة والأدب والشعر والكلام والفلسفة والفيزياء والكيمياء
والرياضيات والفلك وغيرها مما فاضت به خزائن الكتب
في عواصم البلدان المتنافسة فيما بينها على الفضل والعلم
والآداب ...

مدينة بغداد عاصمة

وفي الجيل الذي بدأ العربي فيه يشعر بحاجة الى
تدعيم نهضة العجوة عن نفسه ولسانه ، فظهر التشدد في
اللغة العربية لذاتها على زعم أنها عاصمة العربي بين
الأعاجم اذا كان الاسلام ديننا مشتركا بين الجميع ...

وفي مدينة ليست بالقريبة ولا بالنائية ، وليست
بالصغيرة ولا الكبيرة ، ولا الغنية ذات الوفرة ولا الفقيرة ذات
المشربة ، مدينة تقع في واد بين مرتفعات يقال لها « معرة
النعمان » نسبة الى النعمان بن بشير الأنصاري اذ اجتاز
بها - فيما يقول الفيروز ابادي في المحيط - فدفن بها ولما
فاطمت اليه ، أر تدبرها ، أي اتخذها دارا له ، فيما يقول
ابن خلكان في وفيات الأعيان

وفي أسرة منها معروفة بالعلم والعدل والعقل الراجح
وسمت الوفاة ، يتولى أبناؤها قضاء المدينة وما جاورها .
ذكر ياقوت في معجم الأدباء ممن تولى القضاء في المعرة بعد
شاعرنا وعده وآباء وأخاء الأكبر أبا المجد محمد بن عبد الله
المعري ، الواحد تلو الآخر على هذا الترتيب . كما ذكر
أخاء الآخر وسبعة من أبناء أخوة الشاعر وأحفادهم كلهم

شعراء ، تولي بعضهم القضاء وبعضهم منصب الكتابة لنور
الدين زنكي . وهو شاعده على فضل الأسرة وعراة العلم
والآدب فيها ، كما أنه شاعده على درجة من اليسار فوق
الفاقة ودون الثراء الفاحش المتلف

وفي سنة ثلثمائة وثلاث وستين للهجرة (تسعائة
وثلاث وسبعين للميلاد) ولد أبو العلاء أحمد بن عبد الله
بن سليمان التنوخي الحرري النحوي الشاعر رعين الحسين
أو رعين السجون كما قال عن نفسه في اللزوميات :

أراني في الثلاثة من سجون

فلا تسأل عن النسيان البيت

لفقدى ناظري ولزوم بيض

وكون النفس في الجسد الخبيث

أصابه الجدري وهو في الرابعة من عمره وذهب ببصره
فقطى عليه بأول محبسه أو أول محاسبه ، فأنزل مرغما
عن سائر النكاحات ، فما ولي الرجل في بالي حياته يضيق
إليه أحبابا وسلاسل وقيداً ، كان أكبر ما يميزه الاعتزاز
بالنفس كشأن سائر أسرته ، فأنصب اعتزازه بنفسه على
العقل والعلم والآدب ، وكان محققاً في أن يرى لنفسه الحق
أن يتبوا أعلى ذروة في الدنيا ، أما وقد قصرت به الحال

وأصابته الدنيا في عينه فلبوا جميعها بالأزواء والتجديد
وكيستن بها بإضافة قيود مختارة إلى قيده المخصوص
فأعلمنا الزمان لها وجعلنا لها مكان
إلى طيب الحياة به مسجلا

دار المجد إذا سلم تحت أمته فله
وكن فيها كبيرا أو قليلا
وأصبح واحد الرجلين أما

ملكها في المعاصر أو أبلا (١)

مات أبوه وهو في الرابعة عشرة من عمره فراء
بقصيدة المشهورة التي مطلعها :

تلمت الرضا حتى على ضاحك المزن

فلا جادني إلا عبوس من العجن

وقد يموت أبوه أحد مولايه الكبار الذين تطلب
عليهم . ثم قضى بعد ذلك نيفا وعشرين عاما وليس في
تاريخه شيء كبير . حتى إذا ولى على الخامسة والثلاثين
ترأى له أن يطلب المجد والثروة في بغداد عاصمة الخلافة

(١) الأول : الرابع المعروض عن الفضا

والعلم يومذاك . فرحل اليها في سنة ٣٩٨ هـ وظل بها
حتى سنة ٤٠٠ هـ حتى ينس منها ورجع خائبا سيىء الظن
بها وبالناس . موقنا بان الفضل والأدب وحدهما لا يكفيان
لنستقم ذروة المجد والثروة وأن لابد الى جانبهما من سلم
دنوى يرتقى عليه الى الآفاق البديوية العليا لم يهبه الله
عليها . الا أنه استفاد من رحلته هذه علما وأدبا واستفاد
مصداقة قوم أجلاء منهم أبو حاتم الاسفرايينى القفيع الشافعى
والشريف الرضى والشريف المرتضى الشاعران العلويان .
وحازن دار العلم : أو أمين المكتبة : الذى قطع عزائمه للمعزى
وفتح صدره لمصداقته التى استمرت بعد عودته هذا الى ثلاثة
فترة طويلة حتى انه كتب اليه في سنة ٤١٤ هـ قصيدته
التي مطلعها :

لمن جيرة سبوا النوال فلم يظنوا

يظللهم ما غفل يمينه الخطر

رجسوت لهم أن يقرىوا فتيانهم

وأن لا يشنوا بالمرار فقد شنوا

وهي كرتالة لابييه من قصائد : سقط الزند . وقد
تضمنت هذه القصيدة ايضا إشارة الى آل الحكار الذين
ينتمى اليهم أبو أحمد الحكارى الذى استنطق له زورقه الذى
رحل فيه الى بغداد من أصحاب الأعشار الذين المتصوه حيث
يقول :

وعن آل حكاك جرى سمر العلا

بأكمل معنى لا انتفاص ولا غبط

فان، ينتمهم أمر السفينة فضلتهم

فليس ينسى الفراق ولا الشجط

وبينا هو في طريق العودة الى معرة النعمان والهاء

لما موت أمه . وكانت لها منزلة كبيرة في نفسه فوقع

النبا في نفسه وقوع الصاعقة ودناها بلصيدته التي

مطلعا :

صحت نعيها معنى صمام

وان قال المواصل لا صمام

ولكن صودتها ما برحت تعاوده في المنام كما

يستدل من قصيدة أخرى من قصائده سقط الزند قالها

في رثاء أمه اذ راودته في الرؤيا ومطلعا :

خفي فزادى بالمودة اخلال

وابلا، جيسى في طلائك ابلال

تلك هي الأحداث البارزة في حياته حتى من

الأربعين . وهي التي يلتمس فيها وفي شخصيته وتكوينها

سبب اعتزاله الناس . فلا ريب ان حبه للوقار وحجب

ما يثير السخرية به . وأن أصابته بالجذري والعصى وأن

بأنه من سهولة إقناع الناس لفضله وعلمه الذي استقر
بنفسه من رحلته إلى بغداد وأن موت أمه قد تطافرت
جميعا على تكوين هذه النظرة المتشائمة القاسية عنه عن
الحياة والأحياء . ففقد إيمانه بالحياة وكره كل عمل في
سبيل استمرارها فاقطع عن الزواج خوف النسل . وسخط
على المرأة لأنها حيلة الحياة للعمل على اتصالها . ولكنه
لم يجارى الآثام في هذا السبيل كما قال في «الزوميات» :

لقد توأصل جبل النسل خط بين آدم وحواء فكان يولد
عندما جاء في هذا ما لا
ويبنى لهم توأصل بلائي بآه
تساق حمره وأذ تساق خالد

بعدوى فما أعدتني التزوية

وظلت هذه المكرة قائمة في نفسه حتى الموت .
أذ أوصى أن يكتب على قبره بعد موته . كان أنجاب البنين
نجاية عليهم :

هذا جنسنا أبي علق
وما جديست عسلى أحسنه

وكما فقد إيمانه بالحياة ووجوب استمرارها فإنه فقد
إيمانه بالناس وطرق معاشيتهم . فاعتزلهم في منزله
لا يبرحه ولا يحب أحدا أن يطرق عليه بابه . ولكن أتى
له أن يمنع الناس عن زيارته والتوصل إليه كلما جرتهم

أمر لا يصلح له غيره . . . جاضر صالح بن مرداس أحد
قواد حلب مدينة الحرة وألح في حصارها حتى ضاق
الناس . فتوصلوا للتشيع أن يكون سفيرهم لدى صالح
كي يرفع عنهم الحصار . فاستجاب لهم لرفقة قلبه وعطفه
عليهم . وهي رقة ليست لحرية على أمثاله من التشائمين
القائطين الذين يضيقون بالحياة والأحياء . لأنهم يضيقون
بالناس على ما هم عليه من غسة ودقات . ويعطفون عليهم
لجهلهم وقلة حيلتهم . فلما ذهب إلى صالح استجاب هذا
له وقال : « قد وجهتها لك » . إلا أن المعري لم تفته
السخرية في هذا المؤلف فصوره في مقطوعة من اللزوميات
يقول فيها :

تغيب في منزل برهة ستر العيوب فليد الحسد
فلما انطوى العمر إلا آلاف ل وحن لروحي لرائي الجسد
بعثت سفيرا إلى صالح وذلك من القوم ذاك الجسد
فيسمع مني سجع الحمام . واسمع منه زئير الأسد
فلا يعجبنى هذا التفسد سأل فكم نفقت محنة ما كد

وقدما دعا هذه السفارة لم يخرج من منزله نحو
نصف قرن إلا أن يكون خروجها لغرض ولفترة قصيرة
مرة أو مرتين . فكان التزاعه ذاره هذا هو ثاني محبسته
الثلثين أشار إليهما الناس حين دعوة « وهين المحبسين » .

وكذا اعتزل الناس في عصر داره ، اعتزل اكل
البحوم وما يخرج من الحيوان كالبيض واللين وعاش نباتيا
على مبدأ الرحمة بالحيوان . وقيل ان الطبيب وصفه له في
مرض ألم به مرة ان يأكل الفروج ، فأباه حين قدم اليه
وخاطبه بقوله : « استضعفوك فوصفوك ، هلا وصفتوا شبل
الأسد ؟ ! » وكان يقول (الزوميات) :

تبريح كلك برغوثا ظفرت به

أبر من درهم تعطيه محتاجا

لا بأسق بين الأسماك الجوز أطلقه

وجوز كندة أمسى يعقد الثأجا (٢)

كلامها يتوقى ، والخيلاء له

خبية ، ويرزم العيش محتاجا

وقد أثار بهذا على نفسه لائحة الكثيرين ممن لأصوبه
العداء واتهموه بالخروج من الدين والمزندقة لأرائه في
الالاهيات ، فكانوا يرون في تحريمه على نفسه أكل اللحوم
نسوبا من الخروج على قواعد الشريعة التي أحلت أكل
الحيوان والسمك والطيور ، وقد أدى هذا الخلاف أو العداء
إلى الرسائل التي تبودلت بينه وبين داعي الدعوة بصير

(٢) الأسماك الصلم الأنثيين ، والجوز الأسود - كندة يؤما من
البرغوث : وجوز كندة لقب ثور بن غنيم وهو أبو جى من أميائه المؤمنين .

أبي نصر حبة الله بن موسى بن أبي عمران ، التي بلغت
خمس رسائل ، ثلاثا من داعي الدعاء واثنين من المعرى
اليه . اذ يقول أبو نصر في أولها :

« ولما رأيت ذلك : وسعت داعية البيت الذي يحزى
اليه (أي المعرى) وهو :

غموت مريض الدين والعقل فالتفتي

لتعلم أنباء الأمور الصالح (٢)

شددت اليه راحلة العليل في دينه وعقله إلى الصحيح
الذي يبينني أنباء الأمور الصالح « « وهو يشير بهذا
إلى قصيدة للمعري في لزومياته يقول فيها :

غموت مريض العقل والدين فالتفتي

لتسمع أنباء الأمور الصالح

فلا تأكلن ما أخرج الماء طائفا

ولا تبصق قوتا من غريض الذبائح

ولا يعض أصوات أرادت مريحه

لأطفالها دون الطوائف الصرائح

(٢) هكذا وردت رواية البيت في رسالة داعي الدعاء كما وردتها
بالتواتر في جميع الأديان ج ٢ ص ١٧٨ .

ولا تفجعن العسير وهي غوافل
 بما وضعت لالئلم شر القبيائح
 ودع ضرب النحل الذي بكرت له
 كواسب من أزهار نبت قوايح
 فما أحرزته كي يكون لغيرها
 ولا جمعتة للنسبي والمنايح
 مسحت يدي من كل هذا فليكني
 إيهت لثاني قبل شيب المسائح

واستطرد النقاش من أكل اللحوم إلى مشكلة الخير
 والشر وخالفهما وما جرى هذا المجرى من مسائل علم
 الكلام .

ولئن كان النقاش بينه وبين داعي الدعاء في حدود
 العقولة ، لقد تطرف غير داعي الدعاء ، كإبن الهبارية ،
 حتى طعن في إسلامه وفي قواه العقلية وادّعى أنه لما علم
 بأن داعي الدعاء يستدعيه إلى حنب للقتل أو الإسلام ،
 سيم نفسه ومات .

لكن عانى الرجل من الناس في حياته وبعد مماته ، وهو
 الذي اعتزلهم وما يعتقرون !

وفى ربيع الأول من سنة 1119 هـ ألم به مرض دام
ثلاثة أيام ، . ولم يكن عنده غير بنى عمه . فقال لهم
فى اليوم الثالث : اكتبوا عني . فتناولوا القوى والأقلام
فأملى عليهم غير الصواب . فقال القاضي أبو محمد عبد الله
السنوحى : أحسن الله عزاءكم عن الشيخ فإنه ميت . فمات
ثانى يوم . (1) ووقف على قبره أربعة وثمانون شاعرا
يرثونه من بينهم تلميذه أبو الحسن علي بن همام الذى
يقول :

ان كنت لم تسرق الدعاء زهادة

فلقد أوقمت اليوم من جفنى دعا

ودفن فى ساحة من دور أهله بعمرة النعمان .

ثانيا - مؤلفاته وتصانيفه :

ترك لنا المعري - حسبما ذكر ياقوت - نيفا وستين
كتابه . ضاع معظمها . منها ما أعجلته المنية عن تمامه .
ومنها مختصرات وشروح . ومنها مطولات . كالفصوص
والغايات . . حيث يقصد بالغايات القوافي . . وهو كتاب
موضوع على حروف المعجم ما خلا الألف . . قيل إنه بدأ
بهذا الكتاب قبل رحلته الى بغداد وأتمه بعد عودته الى
عمرة النعمان . وهو سبعة أجزاء . وفى نسخة مقمّدة

(1) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٢١١ .

مائة كرامة » (٥) ومنها الرسائل الطويلة كرسالة الفخران التي كتبها ردا على رسالة ابن القارح ووصف فيها رحلة خيالية إلى الدار الآخرة حيث قابل من قابل من مناهير العرب في الجنة وفي الأعراف وفي الجحيم .

وتشهد مؤلفاته بنوع رائق في تسمية كتبه ، فقد سمى شرحه واختصاره لديوان أبي تمام حبيب بن أوس الطائي باسم « ذكر حبيب » ، وشرحه لديوان أبي عبيدة الوليد بن عبد الله البحتري باسم « عبت الوليد » ، وشرحه لديوان أبي الطيب أحمد بن الحسين المثنبي باسم « معجز أحمد » ، ونهايك بعنوان يدل على خلاصة رأي صاحبه في شعر صاحب الديوان .

على أن أهم ما أثر من شعره هو ديوان « سقط الزند » الذي « وديوان » لزوم « لا يلزم » ، فأما « سقط الزند » فهو موضوع رسالتنا الأصل ، وأما « لزوم « لا يلزم » فهو الديوان الذي اشتمل على فلسفته في الحياة والأحياء وما وراء الموت والأخلاق والمرأة وما إلى هذا من المسائل الفلسفية والأخلاقية .

وقد التزم في هذا الديوان قيودا لا يقيد بها أحد التزم مع حرف الروي حروفا آخر لا يُتعداه كما التزم

(٥) معجم الأديباء ج ٢ ص ١٤٦ - ١٤٧ .

الهمزة مع الحاء في قصيدته التي أسلفناها في تحرير آكل
الحيوان . والزم نفسه قانيا بالنظم على حروف المعجم
كلها . على الرفع والنصب والخفض والوقف ولم يغفل
استغراق جميع البحور والأوزان والقوافي ما أمكن :
كل هذا في ألفراض يصعب على الناثر أحيانا . بله
الشاعر . أن يسوقها في نسق سهل جميل .

ثالثا - سقط الزند

ديوان سقط الزند جزءان يضاف إليهما جزء خاص
بالدروخ أطلق عليه المعري اسم - الدرعيات - وتبلغ عدد
قصائده بين قصيدة طويلة ومقطوعة صغيرة إحدى وثلاثين
قصيدة . كما تبلغ قصائده جزئي الديوان أربعة وسبعين
قصيدة ومقطوعة . يضاف إليها سبع قصائد قصصية
أوردتها جامع الديوان بعد الدرعيات معظمها في الغزل .

ولسقط الزند أهمية كبرى في تصوير نفس الشاعر
وحياته وأحداثها وتطور فلسفته في الحياة التي مارسها
والموت الذي واجهه في أقرب المقربين إليه وفي الأصدقاء
والمعارف البعداء . ففيه الشوق والحنين والفخر والمدح
والتهنئة والغزل والرثاء والوصف والرحلات وفيه خلاصة
آمال الشاعر وآلامه . وسعوره ونعومه . وأفراحه
وأحزانه . وما استقى من كل هؤلاء من العبر والآراء .

والديوان سجل شعر اتحرى منه بدأ يقول الشعر في الحادية عشرة من عمره ، وفيه قصائد قالها في شبابه كقصيدته التي رثى فيها أباه وهو في الرابعة عشرة من عمره . وفيه قصائد قالها في سن النضج كقصائده في بغداد وراثته لأمه وهو عائد من عاصمة بني العباس . وفيه أيضا قصائد قالها في كهولته و زمن متبنيه كوله أبي حمزة الفقيه الحنفي الذي يصفه في القصيدة بأنه رفيق الصبي . وكقصيدته إلى خازن دار العلم التي بعثها إليه سنة ٤٦٤ هـ أي بعد أن تخطى سن الخمسين . وربما كان من بين قصائد الديوان ما صدر عن الشاعر بعد هذه السن ولكننا لا نعلم ذلك على اليقين ، إلا أن الذي نعلمه أن الشاعر نفسه هو الذي جمع ديوانه هذا . فليس هو بالذي يحتوي على آخر ما قال من شعر في الغرض الشعر المألوفة بعزل عن اللزوميات في صياغتها وأغراضها .

ويعتذر علينا في عجلة هذه أن نتتبع قصائده أو حياته كلها في الديوان . فنكتفي بتصوير نفسيته التي تبدو من شعره صورة صغيرة نجهد أن تكون واضحة بقدر الامكان . فلتتبع الغراضه بالاستشهاد ونرى من التحليل ، كما نرى من ذلك دخيلة نفس الشاعر وما انطوت عليه من طموح أو قناعة . ولا يفوتنا أن نرى منه أيضا فقه في القول والتعبير ، ولزومه حالاً يلتزم به غيره من الشعراء في القريض نمجا وغرضاً قبل أن يلتزم به في القوافي والعروض .

لا تكاد تخلو قصيدة من قصائده هذا الديوان .
 نبيها عدا الرثاء ، من الفخر . بل إن بعض رثاء الشاعر ،
 ولاسيما ما رثى به بعض أهله ، يفيض بالفخر بهم كما
 يشهد على ذلك رثاؤه لأبيه ، وهي علامة على مدى اعتزاز
 الرجل بنفسه وعلمه وأدبه على الرغم من مظهر التواضع
 الذي تدلر به طول الحياة .

ولكن العلامة الظاهرة في فخره هي اعزازه بالعلم
 والأدب . لا بالأصل والنسب ، وإن لم يكن نسيه أول من
 أن يكون موضع الفخر والمباهاة ، ولما ورد في قصائده
 إشارة إلى النسب الرفيع ، فإذا ورد من هذا شيء فاقرب
 ذلك في مدائحه لبعض الأعلام من ذوي قرباء . بل إن
 عدم كثراته بالفخر بالأجداد قد طوع له أن يفضل القوم
 على العرب وأمرائها في إحدى قصائده سقط الزند التي
 قالها في الشباب وفيها يقول :

لتذكر قصاعة أباهمنا ونزه بأهلاكمنا غير

فصائل كسرى على قرية من الطف سيدها المنذر

فليس مثل هذا من يفخسر بنسبه وإن كان له في
 نسبه مورد فخر ثراء ، بل فخره بنفسه وعليه كما قال
 من قصيدة في الفخر :

والفخر

ورائى أمام والأمام وراء
إذا أنا لم تكبرنى الكبراء
بلى لسان ذمنى متجاهل
على وخفق الريح من نساء
أى كما قال فى أشهر ما أثر عنه من قصائد القنبر :
ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل
عفاف واقدم وحزم ونازل
أعندى وقد مارست كل خلية
يصدق واشى أو يخيب سائر
لعمد ذنوبى عند قوم كثيرة
ولا ذنب لى إلا العلاء والفضائل
كأنى إذا طلت الزمان وأهله
رجعت وعندى للأنام طوائف
وقد سار ذكرى فى البلاد فمن لهم
باطقاء شمس ضوءها متكامل
يهم الليلى دون ما أنا مضر
ويثقل وضوى دون ما أنا حامل

وإني وإن كنت الأخير زمانه
لأتى بها لم تستطعه الأوائل
وإلى منطق لم يرضى لي كنه منزل
على أننى بين الساكين نازل
يتنافس يومى في أمسى شرفا
وتحسد أسحارى على الأصائل

فليس في هذا الفخر كلمة واحدة عن أياه
وأجداده ، بل فخر بنفسه التى تسعى إلى الجدة في علة
وحزم وكرم ، ويعقله الذى لا يقع فريسة للوشاة والمناقعين
ويعقله الذى لا يخيب سائلا يسأله في حاجة ، ثم ينحى
بالثلمة على أجداده الذين يعسددون له الذنوب وما هي
بذنوب بل علا وفضائل ، ثم يقول كلمته التى تعدد
برنامجه ، في الحياة ، وهي أنه ينبغي أن يفعل ما عجز
عنه الأوائل وإن كان زمنه الأخير بين الأزمان .

ومن هذا القبيل كل فخر أعرب عنه في شعره ،
ولذا فإنه يعد صورة لنفسه تدلنا على تركيب نفسيته
دلالة أوضح من دلالة المدح أو الوصف عليهما ، ولا اعتزاز
وحده ليس هو علامته المميزة ، بل يضاف إليه التحدي
والجناد الذى أضاف إلى حبس النفس أحياسا بعد أحياس ،
وهي خصيصة نفسية تظهر جسدا من قوله في قصيدة
أخرى .

أرى الحقاء تكبر أن تصادوا
فعانده من تطيق له عناداً
وما نهيت عن طلب ولكن
هي الأيسام لا تعطى فينادا
فلا تلم السوابق والمطايا
إذا غرض من الأغراض حاداً
تجنبت الأيسام فلا أؤاخي
وزدت عن العدو فلا أهادي
فأى الناس أجعله صديقاً
وأى الأرض أسلكه ارتياداً
ولو أن الحجوم لدى عال
نقت كفاي أكثرها انتقاداً
كأنى في لسان الدهر لفظ
تضمن منه الغراضاً بماداً
يكرهني ليفهمي أناس
كما كروث معنى مستعاداً

مثل هذا الفخور قد يفتح بصاحبه ان العيب
والشبهير والسخف على الناس والحياة ، ولكن المعرى
ليس من هؤلاء العيابين الناقصين ، بل قصاره انه يريد
الناس اكثر علما وافر قضا واحسن خلقا ، ولكنهم على
ما هم عليه من الضعة والفقار والتهافت على السفساف
والخسة والانحطاط اقل في نظره من أن يستحقوا
الاحترام . وقد يستحقون الحطف والرثاء ، والمعرى يسبح
عليهم سابق عطفه . ولا يقبل وهو الذي اعتزل دنسهم
أن ينفرد دونهم بجنة التعميم :

ولو أنسى حبيبت الخلد فردا

لما أحببت بالخلد انفسا

لولا عطفت على ولا بارضى

سحائب ليس تنظم البلادا

بل انه هو الذى لا يرى الناس الا خادما بعضهم
بعضا . ولا النظام للحياة الا بهذه الخدمة المتبادلة بينهم
راضين وكارهين ، عالمين وغافلين كما قال فى الزوجيات :

والناس للناس من يدو وحاضرة

بعض لبعض . وان لم يشعروا ، خدم

لم يتكسب أبو العلاء بشعره ، ولا طرق باب الأعراف والكبراء . اعتزاً بما بنفسه وعلموا بقدره عن الاستجداء بالشعر . ولهذا لا نجد في مدائحه إلا ما كان من قبيل الأخوانيات ، موجهاً أغلبها إلى أصدقائه ومعارفه . بل إن الكثير منها في الحقيقة وجود على قصائد وردت إليه من أصدقائه الشعراء ، أو شكر على تحية أو هدية تلقاها منهم كتصديده التي مطلعها .

عللاسى فإن بيض الأصالي

فنبئت والظلام ليس بغان

فأنهسا رد على قصيدة بعث بها إليه الشريف أبو إبراهيم موسى بن اسحق مطلعها :

غير مستحسن وصال الفواني

بمسد مستين حجة وتمان

ويتأكد هذا المعنى إذا نظرنا إلى القيم التي يعلقها بمدوحه . ويرأى فيها جدية بالتمجيد والتثوية . فأنها قيم الفضل والعلم والأدب . أى هي للصفات الشخصية من مقابل المكسوب من تراث الآباء . والأجداد . ولربما عرج على ذكر آباء مدوحه . ولكن بعد اثبات الفضل الذى به استحق المدوح المديح .

قال قصيدة يجيب بها بعض الشعراء على قصيدة
بمدحه بها أولها :

أزقد عتيذا فاني دائم الأرق

ولا تشفى . وغري ساليا فشق .

كان هذا الشاعر تلميذه فيما سبق وسافر عنه
ليبحث إليه بالقصيدة من مقامه الجديد . فرد عليه الغري
يقول :

له دورك من مهر جرى وجسرت

عتق المذاكي فخابت صفة العتق

أنا بمنناك نبض القول من كتب

فجئت بالنجم مصفودا من الألق

وقد تفرست فيك الفهم ملتهبا

من كل وجه كئار الغرس في السلق (٦)

أيقنت أن جبال الشمس تدركني

لما بصرت بخيط الشرق اليق (٧)

هذا قريض عن الأملاك محتجب

فلا تذله باكتار على السوق

(٦) عيد للمجوس .

(٧) الأبرص

فإذا ذكر الآباء والأجداد فهو التبسط في الحديث
 مع الصديق . يتبادل قصصه الآراء والمواقف والفتنجات
 التي يعلم أنها قسطن مشترك بينه وبينه . ويعلم أنها
 موضوع مناسب للحديث في مجالس الألفة والثقة ، ففي
 قصيدته إلى الشريف أبي إبراهيم العلوي . يذكر المهدى
 ويسمر ثم يعرج على الكلام في آباء صديقه الذين يحق
 لكل مسلم أن يفخر بهم ، بل يجب على كل مسلم أن
 يواضع امتثالاً لقوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً
 إلا المودة في القربى » فيقول :

وعلى الأفق من دماء الشهداء
 على ونجسته شهبان
 فهما في أواخر الليل نجرا
 ن وفي أولياته شفقان
 تبنا في قميصه ليحيى العبد
 ر مستعدياً إلى الرحمن
 وجمال الألوان عظم حدود
 كل جسد منهم جمال لوان
 يا ابن مسترضى الصفوف يبدو
 ومهيد الجموع من غطفان

أحد الخمسة الذين هم الأ
غراض في كل منطق والمعاني
والشخص التي تظن ضياء
قبيل خلق المريع واليزان

ثم يستطرد في هذا المعنى مستمعاً من أسماء
الكواكب والنجوم ومصطلحات الفلك استعارات وعجازات
وتشبيهات هو بين شعراء العربية استأذها الوحيد يظهر
منازع .

لهذا جاءت مدائحيه صوراً معنوية لأشياء
ممدوحيه ، ولم تكن صورة واحدة متكررة لرجل يستحق
وجوده لا كمال كل كمال فيه ، وغياب كل نقص عنه ، رجل
معصوم من الخطأ حتى في الظن ، معصوم من الزلل حتى
في الدهو ، كذلك الصور التي تراها عند كثير من المادحين
المتكسبين الذين يمدحون صناعة لا شعوراً .

مدح أميراً عرف بالحرب والفروسية ، ومثله من
يتفاهل بالطوالج والأسماء ، فذكر الشاعر تفاؤله باسمه
« سعيد » ، ووصف قوة شكيمة وبأسه وخبرته بفتون
الحرب والقتال فقال :

سألني فقلت مقصدنا سعيد

فكان اسم الأمير لهم فالأ

مكلفاً خياله قنصر الأعادي

وجاعل شابه الأسفل المطولا

تكاد نفسيه من غير رام

تمكن في قلوبهم انبلا

تكاد سيوفه من غير سبل

تجدد الى رقابهم انسللا

تكاد سوابق عطشه تغمى

عن الأقدار صونا وابتدالا

ولربما أخذت المبالغة على المعرى في مديحه ، لأن
يصف عروس الأمير الذي يبنه بأنها محصنة فيقول :

تخفى ولا تظهر الا اذا

احرزها منزلك الأنظم

كانها سر الاله الذي

عندك دون الناس يستكم

ولكن المبالغة في ذاتها ليست عيباً في الشعر ، لأن
المبالغة المعيبة هي ما يصدر عن خلل في الحس والضمور
يؤدى الى الاحالة التي لا رصيدها من النفس ولا من
الواقع ولا من الخيال ، بل رصيدها الوهم والوسواس
والربط بين ما لا يربط بينه ، كوصف ابن حنانى لشبيثة

المعز لدين الله الغاطسي بأنها فوق مشيئة القدر لأنه الواحد
القهار .

أما المبالغة التي تصدر عن شعور صحيح باستحسان
العظيم واستصغار الصغير . فأنهيا عن الشعر في
الصميم .

ومبالغة المعري من نوع غير هذين . فهي من قبيل
من يستطرد بالفكرة إلى منتهاها ونهاية تسوطها المنطقي
فيستغزنها كل عافيتها حتى ما يبلى زيادة المستزيد أو هي
مبالغة الرسام الذي يندفع في التعظيم والتبجيل فيخرج
على صورته توبا من الحسن والرواء . ويحليها المحر
الرفيع . لأنه رواء في نفسه بأزائها . ومحل تسحقه في
نفسه وإن لم يكن لها في الواقع الماتور . ولكنه مع ذلك
لا ينسى الشبه الجميم .

مثال ذلك ما خاطب به أبا الخطاب الشاعر وكان
مطرطاً في القصر فقال :

وعززت اعطاف الملوك بمنطق

رد الحسن إلى القبح شباها

أبستى حل القريض ووشيه

متفضلاً فرفلت في أموابه

وظلمت شعرك اذ حبوت رياضه

رجلا سواه من الوري أولى به

فاجاب عنه مقصرا عن شأوه

اذ كان يقصر عن بلوغ نوابه

الرتاء

والرتاء فن أبى العلا قبل كل فن سواء . فهو في
العربية شاعر الرتاء وفيلسوف الحياة بلا مرء . . نعم
فيلسوف الحياة لا فيلسوف الموت : الحياة الواقفة أمام
الموت موقف الشك والحيرة والخوف والاشفاق وموقف
الأمل أيضا والرجاء : آتراء نهاية كل نهاية ؟ ونوعة
لا يقطعة بعدها ؟ أم هو ثقلة من دار إلى دار ؟

انما ينقلون من دار أعما

ل إلى دار شفقرة أو رشاد

خبيجة الموت رقعة يستريح الجسد

م فيها والمعيش مثل السهاد

ثم ما الدار بعد الدار ؟ اذار تماسة وشقاء أم دار
نعيم ومنية ؟ . . موقف الجاهل بأحق شيء عليه
بالمعرفة واليقين . والصنارخ صرخة اليأس والعجز مسح
ابن الرومي :

ألا من يربنى غايته قبل مذهبي

ومن أين ؟ والقائيات بعد المذاهب

موقف الانسان الذي يريد الحياة بعد الحياة
ولا يدري عاقبة المصير ، بل لا يدري كيف يحدد هذا
الرجاء : أيريدها حياة كالحياة أم تراه لا يرضاها على
نسق الحياة وهل يرضاها على نسق سواء كما يقول
الحقاد :

ما وراء القبر في قول الثقات

حالة تحدد يومها سرها

لست بالراضى حياة كالحياة

لا ولا ترضى حياة غيرها

نعم انه ليحدد سرها ، ولكنه لا يستريح سرها
قائم لا مدخل اليه ولا مفتاح لمعالجته .

والعزى هو فيفسوف هذه الحياة ولسانها الذي
لا يفتأ يذكر الموت ولا ينسأ لحظة عين ، ولا يملك ازاء
الا البعرة والخوف والاشفاق . وهو في هذا عبارى
مفتلور . قال خلاصة ما يقال وهو بعد غلام صغير لم يجاوز
الرابعة عشرة من عمره يوم مات أبوه فراء بقوله :

على أم دفر غضبية الله انها
لأجدر الشئ أن تخون وإن تخفى
جيانا فلم نعلم على الحرص ما الذي
يراد بنا . والعلم لله ذي المن
إذا غيب المرء استسر حديثه
ولم تخبر الأنكار عنه بما يفنى
تضل العقول الهجر زيات رشدها
ولا يسلم الرأي القوي من الأثر
وجدنا أذى الدنيا لذينا كأننا
جنى التحل أصناف الشفاء الذي نجنى
شما رغبنا في الموت كدر ، مسيرها
إلى الورد خمس ، ثم يشر من أجن (٨)
وإخوف الردي آوى إلى الكهف أهله
وكلف نوحا وابنه عمل السفن
وما استعذبت روح موسى وآدم
وقد وعدا من بعينه جننى علق

(٨) التكرار اللطاف . ويميزها إلى الورد خمس أي ثوب الزمان على
مضافة خمس أقال . والأجن أقال الأسن .

سجاور سكن في ديار بعيدة
 من الحى ، سقيا للديار والسكن
 طلبت ينينا من جبهة عنهم
 ولئن تكبرينى يا جبين سوى العن
 فان تعهدينى لا ازال مسالا

فانى لم اعط الصحيح فاستغنى
 نعم لم يعط الصحيح فيستغنى . . لم يعط الصحيح
 الذى يستريح اليه ويطمئن به فى مسألة المسائل وسر
 الأحرار . ولو أنه تيقن من « غايته قبل مذهب » .
 لاستراح .

ونظن أن هذه القصيدة الجوى دلالة على عيشه به
 المعزى - لسان الحياة الحائر ازاء الموت وما وراءه - من
 درره الكبار التى تلتها . ونوبتها قصيدته فى رقاء
 ابي حمزة الفقيه الحنفى . لأن قصائده الشيعونية قد
 تكون ثمرة العلم والدرس . أو ثمرة الفلسفة المستفادة
 من تجاريف الحياة . أما قصيدته الصبا الباكر فلا مصدر
 لها الا العفوية المخطورة والجبلة الدنية فى هذه الطبيعة
 المتأصلة فيه .

ولقد غاضى سبط الزبد بقصائد الرثاء . وتعبدت
 تعبير الشاعر وتلون بالوان مختلفة . ولكن الفكرة دائما

في الفكرة ، والفلسفة هي الفلسفة ، والحياة في حيرتها
إزاء الموت لا تطلبه ولا ترجوه ، ولا تنفك عنه ولا تحيد :

غير مجد في ملتي واعتقادي
نوح بك ولا ثرم سعاد
وشجيه صوت النعي اذا تم
من بصوت البشير في كل ناد
انكث نلکم الحميمية ام غدا
ت على فرع غصنها المياد
نعب غير نافع واجتهاد
لا يؤدي الى غناء اجتهد

ولا يفوتنا في الكلام عن الرثاء عند المعري ان ننظر
في مرثيته ، لثري اهي مجرد مناسبات لبسط القول في
فلسفة الموت وما وراءه ، أم هي رثاء حق للمرثي يخامر
نفس الشاعر بالحزن والالام ؟

المطلع على سبط الزند يرى ان المعري يستجيشه
الميت كما يستجيشه المات ، ففي مرثيته انفعال الحزن
العميق والوجد القوي لفرابي من ذهب من الأقرباء
والاصدقاء ، وحزنه ألوان تتعدد وتغير مع كل ميت
واحد ، وتصويره لا يفقده مع كل فقيده صورة صادقة

لئلا التقيد لا نختلط بسواه - فأبوه قاض له مشاركة
فى الشعر وله سميت ووقار :

مضى طاهر الجثمان والنفس والكبرى
وسعد المنى والجيب والذيل والردن
فيا ليت شعري هل يخف وقاره
إذا صار أحد فى القيامة كالعفن
وهل يرد الحوض الروى مبادرا
مع الناس أم يابى الزحام ليستأنى
حجا زاده من جراءة ومساحة
وبعض الحجا داع إلى البخل والجبن
أموى اتقوا فى . كم أراك انقيادها
لك النصحاء العرب كالعجم اللكن
حينما لك البيت الجديد مؤسدا
يميتك فيه بالسعادة واليمن

وصديقه أبو ابراهيم العلوى أمير فارس ذو غزوات
بالسيف والرمح . ينتمى إلى آل البيت . فهو من أوجب
الله مودتهم على المؤمنين :

أعازل أن صمم القدا عن نعيه
فواحسدا من بعده للقتا الصم
بكي السيف حتى أخضل الدمع جفنه
على فارس يرويه من فارس الدهم
تلك العوالي والظبا في بنائه
لقاء الرزايا من طول ومن حطم
وبالله دهي ما تملك حصارها
له مشبه في يوم حرب ولا سلم
فتى عشقته الباطية حبة
فلم يشفها منه برشف ولا لثم
كان حباب الكاس وهي حبيبة
إلى الشرب ما ينفي الحباب من السم (٩)
فهذا وقد كان الشريف أبوهـم
أمير المعالي فارس النثر والنظم

(٩) الحباب بالمفتح الفاعلات تملو الكاس ، وبالشم الأفعى والشرب
بالمفتح الشاربون .

إذا قيل نيك فالخليل بن أزر

وإن قيل فهم فالخليل آخر الفهم (١٠)

والشيخ أبو حمزة الفقيه الحنفي لا يعرف له صورة
إلا التي صورها له أبو العلاء فأحسن تصويرها .

قصده الدهر من أبي حمزة الأ

واب مولد عجب وخدق اقتصاد

وفقيها الفكاره ^{الحسن} للتصا

ن عالم يشده شعور زياد (١١)

فالعراقي بمعد للنجار

قليل الخلاف سهل القياد

وخطيبا لو قام بين وحوش

علم الضراريات بر النقاد (١٢)

(١٠) الخليل بن أزر إبراهيم عليه السلام - وآخر الفهم الخليل بن
أحمد .

(١١) النعمان اسم أبي حنيفة . وزيره هو النافذة الديلمي
وعلاقته بالنعمان بن النضر مشهورة .

(١٢) النقاد صفار الفهم .

رواية للحدث لم يخرج المعرو
ف من صدقه الى الاستاد
اتفق العصر ناسكا يطلب ال
علم يكتشف عن أصالة والشقاء
عسقى الكف من قليل زجاج
بضروب السراج ماء صناد
ذا بنان لا تلمس الذهب الا
حبر زهدا في العسجة المستفاد

والشاعر الجامع في شيابه قد استكان لأحداث
الزمان في شيخوخته وتعام معنى الصبر على صروف
الحياة ، وإن لم تنفي فكرته عن الموت والحياة حين يرى
صديقه جعفر بن علي بن المهدي يقول :

أعمن بالوجد من وجهه
صبر يعيد النار في زنده

ومن أبي قوم الرزا خير الأسي
كان بكاه مفتحي جهنمه

فلينصرف الجفن على جعفر
إذا كان لم يفتح على نبيه

والشيء لا يكثر مداحه
 إلا إذا قيس إلى ضده
 لولا غنى نجد وقلامه
 لم يثن بالطيب على رثمه
 ليس الذي يسكى على وحله
 مثل الذي يسكى على ضده
 والطرف يرتاح إلى غضبه
 وليس يرتاح إلى سبه
 كان الأسى فرضاً لو أن الردى
 قال لنا افسدوه فلم نفده

تلك هي مرآة أبي العلاء التي تظهرنا على فلسفة
 في موقف الإنسان من الموت وما يجن وراءه من أسرار
 ومغيبات ، وعن موقع الرثى المحزون عليه من نفس الشاعر ،
 وعلى صفة الفقيده التي لا تختلط بصفة فقيده سواء ، وعلى
 نفس الشاعر في أطوارها بين عرامة الضياع وحده
 المضيء .

ولقد طوع للمعري أن يكون على هذا النهج في الرثاء
 أنه لم يضطر إلى رثاء شخص كل أمرته به أنه يجب أن

يرثي أكراما للأعرج أو الوزير الذي يموت إليه بالأسرة
والقربانة . بل رثي من رثي لأسرة شخصية تلامس منه
شفاف القلب ، لحزنه حزن حقيقي صحيح . ووثاؤه صورة
لحزنه على ما فقده في الغيبة ، والموت تذكرة بموقف الحياة
منه . ومواجهة للفسره الذي لا يريد أن يتكشف لبعض
الإنسان .

ولقد شقي المعري لفقد أمة التي ماتت وهو في طريق
عودته من بغداد . فوثاها رثاء الذي كان يأمل أن يفر
إلى طلبها فأنصرف عنه طلبها . والذي كان يريد لها مرقاً له
من أعاصير الحياة ومصارع الأملح التي رأى شاعرها في
بغداد . فأنهدم المرقا قبل أن يدخله السفين . . كارثة
ولا كالكوارث . ولقد ألا ككل فقد . فربما تعزى عن
صديق بصديق . ولكن ما عزاءه عن أمة بعد أبيه ؟ هل
يتضعض للرزء وأنه لرزء رايح الله كبير ؟ ما هو بالمعري
أن تضعض . بل أن له في عناده وتحديه لكوارث الزمان
وخطوبه ملجأ وملاذئ :

سمعت نعيها جنى حمام

وان قال العواذل لا حمام (١٣)

(١٣) أي مات ما عندك يا دهر من المصائب ولو قيل أنني لا أهتم
لأنني في احتماليها . وهمام وهمام مبهتان على الكسر .

وأعنتني إلى الأجساد أم

يعز علي أن سمات أعمى

وأكبر أن يرنيها لساني

بلقظ سالك طرق الضمام

كسائي ربيها من كل رى

الآن كنت احسب في الضمام (١٤)

سفتك الغاديات فما جهام

أطلس علي محلك بالجهام

وتطر كالحجار فليست أرضي

بقطر صاب من خلل الضمام

وعاودته في النوم نسكات منه جرحا لا يتحمل

لقال :

خو فؤادي بالودعة اخلال

وابلاء جسمي في طلائك ابلال

ول حاجة عند النية فتكها

بروحى والاهواء عذ كن أحوال

(١٤) الضمام شئيل وروء الماء للضرب .

إذا مت لم أحفل أباً للشام حفرة
 حوتني أم ريم برسمان منها
 دعا الله أعاليتم أني أعاليها
 دعيت ولو أن البواجر أصال (١٥)
 مضيت وكأني مريض وقد ارتقت
 بي السن حتى شاكل قودي أشكل
 أواني الكرى أني أصبت بناجيد
 ألا إن أحلام الرقاد الضلال
 أجاز حتى العظمى تشبه ساهيا
 بسن لها في ساحة الفم أمثال (١٦)
 وبين الردى والنرم قريبي ونسبة
 وشتان برى للنفوس واعسال
 إذا لست لأقيمت الأحبة بعد ما
 طوتهم شهود في التراب وأحوال

(١٥) أني حتى لو كان صبير الحياة وطها كالأصال
 (١٦) يذكر على العظم أن يشبه موت أمه الجارحة العظمى التي
 لا تنظر لها بقلد سن من ثيبته ولها في فمه العذال

ولكن هذا الذي أعطى منه الشعرى من اختلاف الرثاء
 والندح من لا تربطه به أصرة . قد لاقاه في الفزل
 والنسيب . فهو رجل رزين وقور معتز بنفسه . وعلى
 بصرة غشاوة العمى فهو يمشى الأثرى والأزدرج فلا يفشى
 مصارع العشاق ولا يطرب طرب الجان . ولا يعرف له في
 حياته . على الأقل بعد عودته من بغداد . أى علاقة بالنساء
 ومجالس الطرب والمجون وهو مع ذلك يصح على ألا يقتصر
 مداه عن فن متاح من فنون الشعر . فقال الشعرى في الفزل
 ووصف الخير فجاء عزله صورة واحدة تستطیع أن تسبها
 إلى شيخ المعرة أو إلى شاعر سواء لولا ما فيها من اشارات
 لا تيسر إقبره إلى العلم بالفلك والنحو والفقه والعروض
 والتاريخ وهي علوم على كل حال . والعلوم مورد
 متاح قد يحصل عليه كل السان ببغية . فكان الفزل
 عنده مران واختيار لعلمه وقدرته على التعبير وليس وصفاً
 لخوالج الحب والحنين .

ونساءه اللاتي وصفهن في الحقيقة امرأة واحدة .
 لانكاد نبتين لها ملامح ولا سمات . لأن دونها استأرا من
 حصانها بين أهلها ذوى البأس . أو لأن دونها عن السيوف
 والرماح مالا اجتياز له بسلام . أو لأن بعد الشقة وأينق
 الأرتحال تبعدها عن سهولة المنال .

ولا يفهم من هذا أنه شبيب بأمرأة واحدة واحدة بذاتها
كما فعل جميل بثينة مثلا ، بل الذي يفهم أن المرأة في
غزله صورة واحدة لا تتعدد في صفات الوجوه ولا سمات
الفروس والأخلاق : ولا حتى ظروف المعاش الطارئة التي
قد تنفجر بين حين وحين .

وعاطفته نحو من عاطفة واحدة مطردة مع الشساب
والشيفوخة . شوق إلى التواصل يمنعه مانع معتسف
من الإثمل والآل أو من السيوف والأهوال أو من الأسحار
والأصقال . ويعلم الله أن مانعه الأكبر هو أداة الشيفخ
الزاهد لا امتناع الرشا الحسنة .

فالفزل عنده في الحقيقة حب ، موقف التفتيد ،
ولذلك كان يرأوده كثيرا في الإجمام كما يشهد بذلك
الكثير من شعره . ولقد يفتى في هذا الباب شاهد واحد
أو شاهدان ، تبدر منهما هذه الخصائص التي اضطر إليها
شاعر يرى وجوب القول في النسب ، وما هو من
النسب ، في مضماره الأصيل :

قال من قصيدة قصرها على الفزل والفخر :

ان كنت عديها مودة زينب

فاسكب دموعك يا غيام ونسكب

ضمن الضائم لو علمت نعامه

ميسوداء ، عديها نظير الهيدب

يا سعد النخبة الذين تحملوا

لما دكيت دحيت سعد المركب

غادرني كبشات نعش نابضا

وجعلت قلبي مثل قلب العقرب (١٧)

بالجفن بارزت القلوب وانما

بالنصل يبرز كل شهم محرب

كم قبله لك في الضمان لم اخف

فيها الحساب لانها لم تكن

ومتى خلوت بها من أهلك لم أزع

فيها بطانة عازل من مرقب

ودسول احلام اليك بعثته

فاني على يأس بنجيج انطلب

وقال في مقدمة قصيدة في المدح بدائها بالنسب

على سنة الشعراء الاقدمين :

ياساهر اليرق ايقظ والده السمر

لعل بالجزع اعوانا على السهر

(١٧) بقا نعش والعقرب من مصطلحات تلك

وان يخلت عن الاحياء كلهم

فاسق المواقف حيا من بني مضر

ويا اسيرة حبلها ارى سفيها

حمل الحمل لمن اعيا عن النظر

عاشرت الا وطيف منك يصحبنى

سرى امامى وثاويها على اثرى

لوسط لعل فوق النجم راقده

وجدت ثم خيالا منك منتظري

يود ان طلام الليل دام له

وزيد فيه سواد القلب والبصر

لو اختصرتم من الاحيان زركم

والعذب يهجر للاطراف في الخصر

لهن نساء لاضفة ولا شخصية ، بل طبيعة متكررة
بانهية الممالك والملائح والقياسات ، والمعاملة نحوهن لا تتغير
بتغير أطوار العصر بين الحرامه والهدوء ، وليس في نسيم
المعري - باختصار - صدق العاطفة بل فيه براعة الصنعة
وسعة العلم والقدرة على التصرف في المعاني والألفاظ .

وما يقال في السبيب والغزل يقال في الوصف
بوجه عام : ذلك أن رجلا غلبه الزمان واخضعه بصره .
وحبس نفسه في داره فوق حسي عينيه . وعسا من
شهوات الحس من خمر ونساء . وعزف عن طعام شهر
وساخ عبقري . لا يمكن أن يجد الموضوع ولا الآلة
لوصف التصوري الصادق الذي يتولد فيه كل عضو
من أعضاء الحس ما يشبهه من المنظر الموصوف .

فقداءه إذن أن يتخيل بقدر ما يسمعه الخيال .
وإن يصف من علم أن قاته أن يصف من حس وشهود .

وهذا هو الذي يبدو لنا من أوصاف المعرى ليل
والكواكب بنوع خاص . تلك الصفات التي ألصق فيها غاية
الاطساب ، والتي تدل على علم واسع بالفلك غير عجيب
ولا مستغرب من رجل يهتم بالموت والحياة واستطلاع
الطوائف المغيبات . وتدل على معرفة واهرة باللفة تطوع
له تصريف الأساليب كما يشاء . وتدل على اطلاع
لا تغيب عنه شاردة ولا واردة من تاريخ العرب وتراثهم
ومن مواضع الانساق والاختلاف في علومهم بين شتى
مدارسهم .

ومن ذلك قوله يصفى الليل :

استعجب من تغشوها ليل

تبارينا كواكبها سهادا

كان لجاجها قنوت حبيبا

فصيرت الظلام لها عمادا

وله كتب الضريب بها سطورا

فخطت الأرض لابسها بجادا (١٨)

كان الزبرقان بها أسيرا

تجنب لا يدك ولا ينادى (١٩)

ومنه قوله في الليل أيضا :

ليلى هذه عروس من الز

نج عليها قلائد من حبان

حرب النوم عن عيون فيها

حرب الأمن عن فؤاد الجبان

(١٨) الضريب الذي يتحول قلجا والهباء الكساء المخطط .

(١٩) الزبرقان القمر .

وقال الهلال يهوى القريب
 فهما للبرقاع معتقسان
 قال صبحي في لحيته من الحند
 من والبيد إذ بما الفرقان
 نحن غرقن فكيف ينقذنا نجما
 فدا في حومة الدعي غرقنا
 وسهيل كويحة الحب في اللـ
 ون وقلب الحب في الخفقان
 مستبد كأنه السارسي المـ
 لم يبدو معارض الفرسان
 يسرع الملح في احمرار كما نـ
 راع في الملح مقلد الضبان
 خرجته دعا سيوف الأعداى
 فبكت رحمة له الشعريان
 لدماء وراه وهو في المعجـ
 في كساع ليست له قيمان

ثم شباب العجى وخاف من الله -

جر فطى المشيب بالزعفران

ونضا فجرو على نسر السوا

لح سيفا فهم بالطيران

سورة مفصلة للكواكب والنجوم والليل في أوله
وفي آخره ، اذا اختزلت منها صناعة اللفظ النور في
التشبيه والتورية لم يبق لك منها الا ما تجده في كتب
الفلك من وصف ، سهيل ، بالاحمرار والسمعان ، ووصف
العجى بالسواد ووصف الفجر بالبلون الأشهب كلون
الزعفران فطى المشيب الأبيض وما جرى مجرى هذه
الأوصاف .

وهه وخلفه للغرس اذ يقول :

واعظم حادث غرس كريم

يكون مليكة رجلا شبيها

بربك له سما فوق أرض

قروج قوائم يمدن لوحا (٢٠)

(٢٠) السماء اعلى الغرس ، والأرض اسفلها ، والقروج التي يمد

بين قروعة القوائم هو الهواء .

أصين الجند سابقه . يروى .

على الأيمن المكرر مستريحاً

كان غبوقه من فرط يدي .

منه أيام جسمه تغدا صبيحا (٢١)

كان الركض أبدي الحضر به

صح لبيانه لبيبا صريحا

ومنه واضطه لسرى في اليبدا .

بشنا . فريق في سروج ضوارة

منا وأخرى رجال عوامين (٢٢)

سلب الكرى الباب من ذاق الكرى

منا وطار ببعض لب الناعس

للمره يلتم سيفه وقرايه

ويظنه وجنسات الخيد مائس

حيث الشمال عن المثلث ضعيفة

والسوط يسقط من يمين الفارس

(٢١) غبوق شراب الثقيل : والمصيح للعرق .

(٢٢) العوامس النون الصلبة .

... لا تجيب ، ابن ، سهيلا بطي العيا ...

... بالشام ، فالخزني - شغلة قابض (٢٢) ...

ولسنا نعلم أن أبا العلاء قد تعرض لسفر الليل
على هذه المصفة ، ولا قليل كفاة نصيفا وعيانا ، ولا شغلة
قيلنا خلد ، الحميد مائس ، بل هو وصف على السماع
يخص به النبات المقدرة والكفاة على تصريف المعاني
والإلفاظ ، ويحضر به عن نفسه منقطة العجز والتقصير عما
كان من فنون الأوائل والمراش شجرهم ، وهو الذي يرميه
أن يأتي بما لم يأت به الأوائل وإن تأخر به الزمان

...
الدرعيات

الفراد المعري في ضبط الزند بابا في وصف الدروع
أطلق عليه اسم « الدرعيات » تفروء كله فلا تحصل منه
على وصف للدروع إلا أنها رقيقة النسيج لا تهبط صاحبها
وهو مدرج بها أو وهو طاو لها على حمائله ، قوبة السرد
تزد عادية كل سلاح ، عزيزة على نفس صاحبها لأنها وقاية
له ، والوقاية خير وأجدي من كل صولة بسلاح - فهو
أذن باب لا يعدو عنده أن يكون فرصة أخرى يظهر فيها

(٢٢) سهيل لا يرى في الشام ويرى في اليمن ، فكان أبلة حسب

جدوة النار سهيلا فحدث إلى موطنها الأعلى باليمن ، وما في إلا
جدوة أقصاها قابض

تحتله في اللغة وغريبها . ومجالات يندى فيه عليه بمعدات
العرب وأخبارهم ووقائعهم مصداقا لقوله في الخبر بعلمه
في القزوينيات .

ما مر في هذه النسخة بنو زمن

الا وهندى من أخبارهم طرف

الا ان للباب فضيلة غير الوصف المجهود للدروع
والأسلحة التي تقاومها . وهي وصف المواقف النفسية
لأصحاب الدروع . أجرى بعضها على لسان هؤلاء
الأصحاب . وأجرى بعضها الآخر على لسان من يتخلله من
الناس أو من الدروع في موقف يختلف . منها قصيدة على
لسان رجل كبير وأسن وترك لبس الدروع . ومنها على
لسان رجل دهن دعه قدفع عنها ومنها قصيدة على درع
يخاطب سيفا ومنها على لسان رجل يسأل أمه عن درع أبيه .
ومنها على لسان رجل تزل بالمرأة فساومته درعا . ومنها
قصيدة يذكر فيها نساء احتجن الى لبس الدروع . ولعل
أعجبها وأشدّها مخالفة للمألوف من عادات الناس تلك
القصيدة التي أجراها على لسان أم عجوز تحض ابنها على
اتقاء الدروع وتنفره من الزواج . جمع فيها قصة شعرية
نورد أكثرها جدا لقرائنها ولما فيها من تحليل نفسي بديع .
يقول على لسان الأم تخاطب ابنها :

عليك السابقات فانته
 يدافعن الموارم والأمنة
 ومن شهد الوغى وعليه درع
 تلقاها بنفس مطمئنة
 وحيات القلوب يكن حبا
 اذا دارت رماحا المرجحة
 نحن الى المكارم والمسال
 ولا نثقل مفاك بعب حنة (٢٤)
 ناني قد كبرت وما كساب
 علانية عجزا فمستنة
 سري تنومها ونرى نفاي
 ونهزرا متبهة حسنة (٢٥)
 فان يبيض بالحدثمان لمودي
 لقد اغدو بغود كالاجنة

(٢٤) ملك أي ظهرك : والحنة الزوجة -

(٢٥) القنوم نيات قائم الخطرة كناية عن الشمر الأسود والشفام

نقلت شيد امياض كناية عن انشيد -

إذا ما المارحات تظرون فيه
 عجين لما سرحين وما دمه
 إذا وقعت مدارجها عليه
 سحرون بجمع نيل أو دونه
 ولا تطع المروانف در-سلان
 فكم أوقعن في أرض دجته (٢٦)
 يقطن فلانة أبنية خير قوم
 شفاء ثلعيون إذا خشفه
 لها خدم وأقرطة ووضج
 وأصورة تقاضل أن وزنه
 فبادر أخذهما الخطاب والسنن
 فواتك أنهما علق المضمه
 رزان الحمام ، لو زنت سهيلا
 أو الجوزاء ما نهضت مرنة (٢٧)

(٢٦) المروانف الخطيبات والأرض المونة كثيرة الجن .

(٢٧) سهيل والجوزاء من كواكب النجم . وقامت مرنة ثم
 ماردة .

رجاح لا تحسنت جارتها
 بنجوى من حديدك مستكه
 كان رضا بها مسك شنين
 على راح تخالط ماء شينه
 فلا تستكثر الهجمات فيها
 فاعراس بشك وغول جفته
 اذا قبلتها قايلت منها
 اليج النور في زهر حفته
 تغيب من غنى مال وصبر
 وأما بالقبر في غام تغنه
 وليست بالمعصية في الجسدال
 وان جدلت كما جدل الأعمه
 أولئك ماأين يتصمخ خصل
 ولا دن المليك ولا يدانسه
 وقد آمن أن بأخيهن يوما
 رشاك ولم يقين بما ضمه
 ولو طأوتهم لجنحت يوما
 باخت الغول والنصف الصفه (٢٨)

(٢٨) الفصل الرابع في منتصف العمر : والصفه المترمة .

إذا حاورتها تبثت حواري

والا تلف لي ذنبا تجنه (٢٩)

وبعد . الغياب على الحرى أنه لم يصف ما شاعره
بعينه ووصف ما تخيله بصيرته ؟

ان امتدادية الوصف في هذه القصيدة لتعجز
المتفرعين لهذا اللون من وصف مشاعر النساء ودخائل
نفوسهن على اختلاف السن والموقف . فهذه العجوز
تحن لابنها اقتناء المروع لا اعتقادا ولكن غيره من فتاة
كعاب فتية لن ثلاثها . بل تعرها بشعرها الأبيض
وتباض عليها بسواد شعرها القاصم . ثم لا تلبث ان
تنسى نفسها فتذكر أياما لها سلفت كانت فيها ذات شعر
كجنح الليل يسر الماشطات ويذهبن . ثم هذا الاعجاز
في وصف حيل الخطيبات اللاتي يفرين الفنى بأصل
الفتاة ومالهسا وخدمتها وثروة حليها ووجاهتها
ورزانتها وجمال وجهها وثناياها . ثم يستحثه الى
المبادرة بخطوبتها حتى لا يسبقه اليها سابق من خطاياها
الكثيرين .

كل هذا على لسان حنة المستقبل التي تكره زوجة
ابنها ككائن مجرد قبل ان تعرف من تكون بالتحديد .

(٢٩) ثنية ابي تنوء ثنية ابي تنوء

فتلقى الى ايديها بالنصيحة ان هؤلاء الخاطيبات كاذبات
ياتينك بغير ما وعدن ولا ضمان لوعدن ، ثم يبدو من
حيث لا تريد مسبب الكره على لسانها سلبية تلقائية فيها
وهو ان الزوجة لن تالف حياتها ولن ترشح لتوجيهاتها
ولن تضع نفسها في خدمتها ، فتفسر الحياة هذا السلوك
منها بأنه تستطع للذنب ان وجد واختلاق وتجن عليها ان
مز عليها وجود الصحيح .

أي قصاص لا يحسد المعري على هذا الوصف المبدع
المميز لأطوار النفوس ؟ . والمعري بعد هذا فصل
الشاعر على النائر المسترسل في الحديث . بل فصل
الشاعر الذي يتعبد ابراد الغريب من الفاظ اللغة ليباري
فيه الأقدمين وليثبت أنه آت بنا لم يستطع الأوائل . وأنه
في هذا لعل حق مبين :

هذا هو المعري منظورا اليه من ثقب صغير مهم هو
ديوان « سقط الزند » :

رجل خلق بعقل الفيلسوف ونفس الشاعر فكان
شاعرا فيلسوفا يتغلب فيه الشعر على التفكير فيميزه عن
الفيلسوف الشاعر كالأفلاطون .

وجد نفسه في عصر من عصور الغتنة والانتلاب
والشك الجائغ في كل ما تواضع الناس عليه فصادف
من نفسه كل ملكة فيها .

بحث في العلوم والأديان والفلسفات والتاريخ لعنه
وأصل منها إلى يقين فأهونه اليقين ، لأن شبهة لا يرجع إلى
نقص في العلوم بل إلى سبب يحصل في النفوس التي
لا تجسد الاطمئنان إلى شيء ، وحولها كل شيء متغير بين
أن وأن أنه قد جاء بغيره ، فلهذا لا توجد وساطة

أثر العزلة عن الناس والأحداث وهيئات أن هو
اعتزل الناس أن يعتزلوه ويتركوه بعيداً عن مضطرب
الأحداث لا يصيبه منها ولا حتى الرضا .

وأصابه الزمن بالصبي في بصره ولكنة أفاة عليه
بالعروض الوافى في جلاء البصيرة ولفاظ الرأي . إذ اصنع
عليه جلاء الرزية ، فكان نصيبه هو القيم النادر بين الناس
وكان رزؤه في السبيل الذي لا يتميز به أحد بين العظام
والعوام .

وبصير الأرقام مثل أعي
فهلوا في حندين لتتصادم

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الأيداع بدار الكتب ١٩٩٤/٥٣٦٩

ISBN — 977 — 01 — 3966 — 1